

## الحديث المسلسل بالأولية

﴿الراحمونَ يرحمُهُمُ الرحمنُ ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء﴾<sup>(١)</sup>.

### توطئة

الحمد لله رب العالمين الملك الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أرحم المرسلين وآله وصحبه أجمعين ومن سار على دربهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.  
أما بعد :

فتعد الدرس الأول ذا أهمية كبيرة في تشكيل عقل الطالب ، ويلعب اللقاء الأول دوراً مهماً في تكوينه فيما بعد ، إذ إن طالب العلم مهما أخذ في رحلته في طلب العلم فإن اللقاء الأول يبقى محفوراً في ذاكرته مؤثراً في أعماق ذاته مساهماً مساهمة فعالة في تكوين شخصيته. وهذا أمر اتفقت عليه كل نظريات طرائق التدريس ، لذا فقد أكد علماء طرائق التدريس على وجوب استعداد المدرس للقاء الأول بالطلبة ، فيجب أن تكون الكلمات الأولى دسمة في محتواها شيقة في طريقة عرضها. ولا بد من الاستعداد حتى على مستوى مظهر الأستاذ الخارجي ، وهذا الاستعداد والاهتمام بالدرس الأول يكون على اختلاف المراحل الدراسية من التدريس في رياض الأطفال إلى التدريس في مراحل الدكتوراه.

وقد دأب العلماء على تقليد لطيف وهو أن يكون هذا الحديث (الحديث المسلسل بالأولية) أول حديث يتلقاه الطالب من شيخه في رحلته لطلب علم الحديث<sup>(٢)</sup>، فيتفتق سمعه على هذه الكلمات ، وقد بدأ هذا العرف عند العلماء من الإمام سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) الذي تنتهي عنده سلسلة الأولية ، بمعنى أن سفيان بن عيينة هو الذي بدأ عرف البدء بتعليم هذا الحديث ، إذ سمعه عبد الرحمن بن بشر (ت ٢٦٠ هـ) من سفيان بن عيينة ، وقال : وهو أول حديث سمعته من سفيان. وأخذ عبد الرحمن

<sup>١</sup> رواه أحمد : ٦ / ٤٦ - ٤٧ برقم (٦٤٩٤) ، وذكر أحمد محمد شاكر في تحقيق المسند أن إسناده صحيح ، وأبو داود : ٨٢٥ برقم (٤٩٣٣) ، وسكت عنه ، والترمذي : ٥٣٧ برقم (١٩٢٤) ، وقال عنه : هذا حديث حسن صحيح.

<sup>٢</sup> ينظر الموافقات : ١١٣.

يعلمه لتلاميذه أول ما يعلمهم. وقد تلقى سفيان هذا الحديث من شيخه عمرو بن دينار (ت ١٢٥ هـ)، ولم يكن أول حديث تلقاه منه ، أي : ((إن سلسلة هذا الحديث تنتهي إلى سفيان بن عيينة فقط دون من فوقه ، ومن رواه مسلسلاً إلى منتهاه فقد وَهَمَ))<sup>(٢)</sup>. وهذا من باب لطائف الإسناد. وقد وصلت إلينا هذه السلسلة المباركة بالأولية ، ونحن - إن شاء الله تعالى - سنوصلها إلى أن يشاء الله تعالى.

وجدير بالذكر أنه لا دخل لهذه الأولوية بالعمل بحديث الرحمة ، إذ إن هذا الحديث ثابت عن النبي ﷺ واجب العمل به سواء أ كان أول حديث تلقيناه عن أساتذتنا أم تلقيناه آخر حديث. وهذه الأولوية بالنسبة للعمل من فرعيات تلقي الحديث لا من أساسياتها ، فالأولية ((من مُلِح العلم لا من صلبه))<sup>(٣)</sup>.

#### المبحث الأول : الأهمية الاعتقادية

للبدء بهذا الحديث أهمية كبيرة في البناء الاعتقادي ، إذ يتم من خلاله الربط بين الإيمان باسم الله ﷻ الرحمن ، وترتب آثار هذا الاسم على العبد الذي يرحم الناس ، ويدع الشدة والغلظة. وتتجلى الأهمية الاعتقادية للحديث في مظاهر أهمها :

#### الإيمان بالرحمن سبحانه

الإيمان بصفة من صفات الله ﷻ، وهي صفة الرحمن ، ومن مقتضيات الإيمان بهذه الصفة أن نتمثل الحصة البشرية من هذه الصفة. فمن الواجب على من يعرف صفات الخالق ﷻ ((السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها ، وبه يصير العبد ربانياً ، أي : قريباً من الرب ﷻ))<sup>(٤)</sup>، فمن ثمرات الإيمان باسم الله الرحمن أن نتخلق بالقدر البشري من هذه الصفة ، وهي صفة الرحمة ، فنرحم مخلوقات الله ﷻ. وليس بخافٍ أن صفات الخالق ليست كصفات المخلوق ، وإن كان بينهما تشابه في الاسم ؛ فالفرق بين صفات الله وصفات العبد كالفرق بين الله والعبد. وذكر الغزالي أن حظ العبد المؤمن من صفة الرحمن أن يرحم عباد الله ﷻ العاصين ، فيصرفهم عن جحيم الغلظة إلى جنات

<sup>٣</sup> بذل المجهود : ١٣ / ٣٤٣.

<sup>٤</sup> ينظر الموافقات : ١١٣.

<sup>٥</sup> المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى : ٢٧.

الطاعات بالرفق واللفظ دون تعنيف ، ولا يدخر جهداً في النصح والإرشاد لئلا يتعرضوا لسخط الله ﷻ<sup>(٦)</sup>.

### سير السنة على منهج القرآن

البدء بهذا الحديث يعد تسييراً للسنة المطهرة على منهج القرآن الكريم ، إذ إن الله ﷻ بدأ كتابه بالرحمة في قوله ﷻ: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة : ١] ، فاختار اسمين من أسمائه يدلان على الرحمة. وكذلك السنة تبدأ بهذا الحديث المليء بالرحمة سيراً على سنة القرآن الكريم في البدء بالرحمة في التعليم. وهذا ما يزيد من ثقة المسلم بوحدة المنهج الذي ينتظم الكتاب والسنة ، وهما دعامة هذا الدين ، ولا تناقض بينهما ، بل هو الانسجام التام ، الأمر الذي يوحى به انسجام أول حديث مع أول آية في ذكرهما للرحمة ؛ فإذا اتفق الوحيان على الرحمة أيشذ عنهما من تربى على منهجهما.

### الرحمة المهداة

ينسجم البدء بهذا الحديث مع وصف النبي ﷺ في قوله ﷻ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء ١٠٧] أفيجوز أن يبدأ منهج هذا الرسول الرحمة المهداة بالغلظة ؟ لا بل لا بد أن يبدأ بالرحمة ، لأن بعثته رحمة ومنهجه رحمه بل هو الرحمة بعينها. وهذه فائدة عقديّة تجعلنا نعرف أهم صفة من صفات هذا النبي ﷺ من جهة ، ونزداد ثقة بالترابط الوثيق بين معاني الوحيين الكريمين. ولما كان المسلم يتخذ النبي ﷺ قدوة وأسوة ، فإنه الرحمة ستكون أهم صفة من صفاته.

### الرجاء في رحمة الله ﷻ

يعد البدء بهذا الحديث استمطاراً لرحمة الله تعالى ، أي : هو رجاء منا أن يعاملنا الله سبحانه وتعالى برحمته لا بعدله ، فإنه لا أحد منا يدخل الجنة إلا برحمته لا بعمله ، فإذا استحضرننا اسمه الرحمن في أول ما ندرسه فإننا نرجو أن يعاملنا الله تعالى به. وهذا ما يقوي الرجاء في رحمة الله تعالى الذي يعد الجناح الثاني للعبد بعد الخوف من الله تعالى.

<sup>٦</sup> ينظر المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى : ٤٢.

## المبحث الثاني : الأهمية اللغوية

للبدء بهذا الحديث أهمية لغوية كبيرة في الابتعاد عن التطرف اللفظي ، فقد تضمن الحديث جوانب جمالية دقيقة من الناحية الصوتية والصرفية والنحوية والبلاغية تزيد من رقة الخطاب وتبعده عن الخطاب المتشنج المتطرف.

### الناحية الصوت

أصوات الحديث من أجمل الأصوات من ناحية التناغم الصوتي إذ شاع فيه ثلاثة أصوات أكثر من غيرها بشكل لافت وهي الميم والراء والنون فصوت الميم تكرر ١٠ مرات وبعده في الشيوخ صوت الراء الذي تكرر ٨ مرات ، ثم صوت النون الذي تكرر ٤ مرات وهذه الأصوات الثلاثة من أجمل أصوات العربية لتضمنهما صفة الغنة بالنسبة للميم والنون والتكرير للراء. ولما كان هذا الحديث أول ما يعطر سمع طالب العلم فإنه يعد تربية ذوقية للذائقة النغمية لطالب العلم بحيث ينشأ على سماع الكلام الرقيق الرفيق الأمر الذي يجعله ينفر من سماع الكلمات الخبيثة التي تחדش الأسماع بأصواتها النشاز التي لا تتسجم مع التربية الذوقية التي تلقاها من الحديث ، وبالنتيجة فإن من تربي على سماع الكلمات الجميلة لا يستطيع التلطف بالكلمات الخبيثة لأنها ستخدش لسانه ، وهذا من اللين في القول الذي أمر فيه نبي الله موسى عليه السلام في مخاطبة أطمعى الطغاة فرعون. وبذلك يكون طالب العلم أبعد ما يكون عن العنف اللفظي والاعتداء على الآخرين باللسان فهو قضاء على أشد ما يمكن أن يفضي للعنف وهو الإرهاب اللفظي.

### الصرف

استعمل الحديث اسم الفاعل (الراحم) مع العبد ، ولم يستعمل الرحمن أو الرحيم فكأنه تلميح إلى أنه لعل رحمة منا واحدة تجعلنا نصيب رحمة الله تعالى ، ولذلك عبر باسم الفاعل لا بالصفة. والشواهد على ذلك كثيرة ، ولو عبر بصيغة المبالغة لترتبت رحمة الله تعالى لمن كانت له الرحمة سجية أو كان أكثرًا منها ولم تشمل من يرحم مرة أو مرتين فأتى باسم الفاعل ليزيل هذا الإيهام فله الحمد والمنة.

وهذا أمر يطرد شبح التطرف فقد تكون رحمة واحدة كافية لأن نصير إلى أن نكون مرحومين.

### النحو

- استعمال أسلوب الشرط والجزاء إمعان في الربط بين العمل وثوابه. فالتركيب اللغوي يبعث على الطمأنينة في حصول رحمة الله تعالى للراحم.
- الحديث قرئ بسكون الميم وبضمها من (يرحمكم) ، فهو في حالة السكون يكون مجزوماً على أنه جواب الطلب ، أما في حالة الرفع فهو على الاستئناف<sup>(٧)</sup>، وبذلك تكون الجملة مفيدة للدعاء.

### البلاغة

الطباق بذكر الشيء وضده في عبارة واحدة ، وقد وقع الطباق في الحديث بين السماء والأرض.

جناس الاشتقاق لتضمن الحديث اشتقاقات مختلفة بين اسم وفعل وبين فعل وفعل وبين اسم واسم لمادة (رحم).

الكناية عن الموصوف (من في السماء) وفيها تكنية عن الله تعالى أو عن الملائكة<sup>(٨)</sup>.

فضلاً عن ذلك فقد حوى الحديث مجموعة من الأساليب اللغوية منها الخبر في الجملة الاسمية والإنشاء في الجملة الفعلية الأمرية. والجملة الاسمية التي تفيد الثبات والجملة الفعلية التي تفيد التجدد والحدوث وجملة الشرط وجوابه وكل ذلك من التنوع العبقري في استعمال إمكانيات اللغة التعبيرية مما يتيح للطالب حين يسمعها خيارات تعبيرية مختلفة تمكنه من التعبير بالطرائق المختلفة للتعبير عن ما في داخله واختيار القوالب اللفظية المنسجمة مع الهدف الذي يريده من دون أن يخدش أذن السامع بعبارة مزعجة وكل ذلك يقوي الرحمة في قلبه ليرحم الناس من الألفاظ البذيئة التي قد يكون تأثيرها أقوى من تأثير السيف.

<sup>٧</sup> ينظر عون المعبود : ١٣ / ٢٨٥ ، وبذل المجهود : ١٣ / ٣٤٣.

<sup>٨</sup> ينظر عون المعبود : ١٣ / ٢٨٥.

المبحث الثالث : الأهمية الفقهية

للبدء بالحديث المسلسل بالأولية أهمية فقهية تتجلى في مظاهر أهمها :

### وجوب الرحمة

أوجب الحديث الرحمة رحمة مخلوقات الله تعالى ، إذ ورد الأمر بالرحمة بصيغة فعل الأمر (ارحموا) ، واتفقت كلمة علماء الأصول على أن الأصل في الأمر أنه يفيد الوجوب ما لم يأت دليل يصرفه عن الوجوب إلى غيره. وهذا الفعل جاء بصيغة الأمر ، ولم يأتنا دليل يصرفه عن الوجوب ، فدل ذلك على أن الرحمة واجبة على كل مسلم. وذكر كلمة (من) يعمم الرحمة لتشمل عموم العقلاء ، وهي هنا تشمل غير العقلاء مع العقلاء من باب التغليب ، قال المباركفوري : ((أتى بصيغة العموم ليشمل جميع أصناف الخلق فيرحم البر والفاجر والناطق والبهم والوحوش والطير))<sup>9</sup>.

### الجزاء على الأعمال

إن الله تعالى يجازي الناس على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ومن ذلك الجزاء نزول رحمة الله تعالى على الراحمين. فلأنهم رَحِمُوا رُحِمُوا ، فهو من باب الجزاء من جنس العمل. ومن جهة ثانية فإن الاختلاف بين صفات الخالق وصفات المخلوق كالاختلاف بين الخالق والمخلوق ، لذلك فالجزاء لا يقارن بالعمل ، فهو يفوقه أضعافاً مضاعفة لا يعرفها غير الله تعالى.

المبحث الرابع : الأهمية النفسية

الحديث فيه إدخال للرحمة في القلب لتحل محل عكسها فهو من باب إذا حضرت الملائكة فغابت الشياطين. وتتجلى الآثار النفسية في الحديث على شكل مظاهر أهمها :

### الصدقة مع الكون

<sup>9</sup> تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي :

قال رسول الله ﷺ : (( لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ كَتَبَهُ وَهُوَ مَوْضُوعٌ تَحْتَ الْعَرْشِ : " إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي " ))<sup>(١)</sup>. فرحمة الله لما كانت سابقة وهي أول ما كتب القلم جعل الحديث الممتلئ بالرحمة أول ما يدرسه طالب العلم فيكتبه بقلمه. فهو تناغم العبد مع أول مخلوقات الله تعالى القلم ، إذ يكون بهذا التناغم صديقاً للكون مما يشعره بجو من الإيلاف والأمن يبعد عنه أشباح العنف ، ويشيع في قلبه أحاسيس الرحمة.

### ذكر الجزاء يسهل العمل

التذكير بالجزاء الأخرى يسهل العمل على العامل ، لأن استحضار الجزاء يخفف من وطأة الشدة الموجودة في الأمر.

المبحث الخامس : الأهمية الأخلاقية

إن للبدء بهذا الحديث أهمية كبيرة في البناء الأخلاقي لطالب العلم الذي سيصبح بتوفيق الله تعالى عالماً يوماً ما ؛ وتتجلى الأهمية الأخلاقية للبدء بهذا الحديث في مجموعة مظاهر أهمها :

### إدخال الرحمة نزع للغلظة

إن في تعلم حديث الرحمة إدخال للرحمة في القلب لتكون خلقاً للطالب ، وتحل محل القسوة والشدة. وإذا تلقاه في أول شبابه فإن هذه الخصلة ستكبر معه حتى إذا شاب أضحت هذه الخصلة متأصلة فيه لا تفارقه.

### الرحمة لعباد الله تعالى

هذا الحديث يربي طالب العلم على الرحمة لعباد الله تعالى ببذل النصح لهم عامة كانوا أو أئمة ، وإرشادهم إلى الخير وتوصيل العلم لهم الذي يعد أكبر رحمة لهم من وطأة الجهل الذي يورث تعاسة الدنيا والآخرة.  
اللهم اجعلنا من عبادك الرحماء.



<sup>١٠</sup> رواه البخاري : برقم (٧٠٢١)